

الثلاثاء 18-11-2008

445- أن تملأ الوقت بما هو أحق به!!! (1)

اعتذار سخي..

..أنا على سفر، مثل كل سفر، مثل كل أسبوع، فهو ليس مبررا أن أتوقف عن ما وعدت به من أن أواصل اليوم، الثلاثاء، مناقشة حالة إدمان الابن عادل، ماذا تعني، وماذا نفيد منها... إلخ

أعددت فعلا -من واقع كلامه الذي نشر- (بالإضافة إلى وصف وشكوى أسرته : الأب والأم والأخت) ما بين لي مغزى بعض التداخل بين فرط حركته الباكورة، والطاقة التي تطلقها بعض المواد، بين ذلك وصورة جسده، ومجئه عن التميز والاختلاف، وعشقه للخطأ، وممارسته "للضد" في مواجهة رفاهية أسرته ونجاحها واغترابها معا، ثم إصابته بالسكري في مستهل شبابه... إلخ

حاولت أن أقرأ كل ذلك من خلال فرض : توظيف الإدمان في تغيير الوعي، وليس في مجرد إخماده أو تهيجه، وبالتالي لاح لي أن بإمكان عرض ذلك التحريك المصطنع بالمواد الإدمانية ، مصطنع لأنه زائف، لأنه تحريك" في المحل"، بدلا من حركية الجدل أماما.

أعددت كل ذلك في مسودة عاجلة، لكنني وجدت أنه لكي أقدمه كما ينبغي، خاصة لمن لا يتابع فكري بالطول، تلزمي بضعة أيام.

ماذا أعمل؟

تصادف أني كنت أتناقش قبل يومين مع بعض الأصدقاء من جديد، حول وراثته العادات المكتسبة (الدالة تطوريا) ، وعن ماهية لفظ البيولوجيا كما أستعمله، وكما هو شائع عنه، وعن تشويه كلمة "الغرائز"، واستحسان استبدالها بتعبير أحدث يفيد "البرامج البقائية"، الأمر الذي قد يعفينا من الخلط حين نستعمل كلمة غريزة فتفوح منها رائحة بدائية، أو حين نستعمل كلمة فطرة، فتختلط باحتكارات بعض مفسري الدين لها.

ظل هذا النقاش في خلفية وعيى، وأنا على سفر أعد هذه المسودة الخاصة بهذه الحالة كما وعدت، فازدحت الأفكار حولى حتى كدت أغرق فيها، قلت أبحث في حاسوبى عن كلمة "غريزة"، وعينك لا ترى إلا النور.

وجدت لدى مسودة كتاب بأكمله بعنوان:

الطب النفسى والغرائز

قراءة خيراتية في الفطرة البشرية

رحت أتمعن الصفحات الأولى، مجرد الإهداء وبعض المقدمة فوجدتها كالتالى :

الإهداء

إلى مولانا محمد بن عبد الجبار بن الحسن النقرى

وكل من تحمل حدسه، فتوجه معه

مقدمة:

هذا كتاب، مثل كل كتاب، له تاريخ.

ماوصلنى فاضطرت لكتابته جاءنى من مصادر متعددة، بعضها بدا بعيدا عن البعض الآخر، حتى كاد يبدو متفرقا أو متناقضا، لكن أهمها كانت - وما زالت - معاشتى لمرضى، ومحاولة تقمصهم، وقراءتهم، باعتبارهم النص البشرى الأكثر تعريفا، والأعمق غورا.

يلى ذلك ممارستى للنقد الأدبى تلقيا أساسا، ثم كتاباتى فى هذا وذاك، حيث تتضح لى أحيانا أكثر أبعاد المسألة التى أتناولها أثناء ممارسة الكتابة، فتتحدد أكثر جلاء منها حينما كنت ألمم أطرافها قراءة أو تفكيراً، أو حتى معاشة.

ثم تأتى متابعتى المتواضعة لعطاء البشر العلماء والمبدعين .

كل ذلك منصهر فى تحديات إشكالية وجودى شخصيا، كائنا لم يُستشر أن يبدأ كذلك،

أو أن يكمل كذلك،

ثم إن الفرص المتاحة له لا تسمح له أن يغير ما هو كذلك،

ولا أن يستمر كذلك، مهما ادعى غير ذلك.

الكتابة عن الفطرة ليست مطابقة تماما للكتابة عن: "نظرية فى الإنسان"، أو "فلسفة للوجود"، أو "مدرسة" فى علم النفس أو الطب النفسى. هى أكثر غموضا، وأخفى مهريا، ذلك لأنه لا يوجد تعريف علمى لما هو "فطرة". لا يوجد اتفاق بين مختلف المعارف على تعريف الكلمة،

(إضافة: أنظر نشرات أيام 2007/9/30 ، 2007/11/4 ، 2007/11/6)

كذلك تمّ خلط محتمل بين الفطرة والبدائية،

وأخيرا فإن لفظ الفطرة هو لفظ غير مألوف في الأوساط العلمية، كما أنه من الألفاظ المسامية التي تسمح أن تدخل إليها طفيليات كثيرة يمكن أن تقلب ما يراد منها في خبث أو جهل، والنتيجة خطيرة في الحالين.

لكل ذلك احترت في العنوان، لكنني انتهيت إلى ما هو عليه حالا، برغم الحذر الشديد من استعمال لفظ "الغرائز" خشية اختزاله إلى ما شاع عنه غير ما قصدته.

أما أنه كتاب في الطب النفسي، فهذا غير صحيح، مع أن ما جاء فيه هو نابع أساسا من ممارستي للطب النفسي، كما أنه يصب يوميا في هذه الممارسة.

إن الطب النفسي إنما يلتحم بثقافة كل من الطبيب والمريض بشكل غائر، حتى وإن لم يبد كذلك على السطح. إن ثقافة أهلي، في فترة زمنية محددة هي الفترة التي بدأت أعمل فيها أمانة ممارستي وجودي ومهنتي حتى تاريخه.

أما أنه كتاب عن الغرائز فإن ذلك لا يصح إلا من خلال تناولها من بعد تطوري يتجاوز تحديد عدد معين من الغرائز فلا تعود تنغلق في تعريف موجز لأي منها.

إن الفطرة هي حركية جماع برجة بيولوجية ناتجة عن تاريخ طويل منذ خلق الحق سبحانه وتعالى الحياة، وهي ممتدة بحكم التطور بفضل العدل تعالى وتنزهه، إلى غايتها المفتوحة النهاية، فهي قانون حيوي جاهز للتحوير والنمو بما يعد بما لا نعرف.

لكننا لا يمكن أن نتناول المسألة بهذا الإجمال الغامض، فكان لزاما أن نراجع الأمر واحدة واحدة، فكانت النتيجة أن وجدنا أنفسنا أمام بعض ما يسمى الغرائز واحدة واحدة، فتناولنا منها ما تيسر.

عتويات الكتاب ليست مترابطة بشكل تلقائي، ولا هي كتبت بنفس المنهج ولا في ظروف متشابهة، ذلك لأن الخبرة ممتدة ومتواصلة طوال نصف قرن (على الأقل) بما يحتم المراجعة وإعادة النظر طول الوقت، من هنا فإن لكل فصل ملابساته وظروفه، مع محاولة ربط ختامي متواضع.

بحسب التسلسل التاريخي، فإن جذور هذا المدخل يمكن أن ترجع إلى انتماء الكاتب إلى ما سمي لاحقا "الطب النفسي التطوري"، ذلك أن الكتاب الأم: "دراسة في علم السيكيوباثولوجي" (1979) ثم النظرية الأساس "النظرية الإيقاعية التطورية" يمثلان البنية الأساسية لفكر المؤلف بهذا الصدد. بالرغم من ذلك، فإن الكتاب لن يشمل أيا من هذين الأساسين حيث يتم تحديثهما ليعاد نشرهما لاحقا.

على أن ثمة إرهابات ظهرت في تناول أسبق لمستويات الصحة النفسية على طريق التطور الفردي في كتاب "حيرة طبيب نفسي" (1972) وخاصة فيما يتعلق بتعريف الصحة النفسية من منطق التوازن الممكن على مراحل مختلفة يفصل بينها درجة من اللاتوازن المناسب تمهيدا لتوازن أعلى (أو أدنى في حالة المرض والتدهور). هذه الأطروحة عن مستويات الصحة النفسية لم تكن تتعامل تحديدا مع غريزة بذاتها، وسوف يشار إليها كلما لزم الأمر دون تفصيل.

(إضافة : وقد تم تحديثها بإضافة بعد الإيقاع الحيوي ونشر بعض ذلك في نشرة 2008/1/6) .

يقدم المؤلف حسب التطور التاريخي لفكره "غريزة العدوان" أولا ، وبالذات في علاقتها بالإبداع، كتبت هذه المداخلات ابتداء سنة 1980 ونشرت في مجلة الإنسان والتطور "عدد يوليو سنة 1980" ، ثم أعيد نشرها بعد تحديثها في مجلة فصول (المجلد العاشر العددين 3-4 سنة 1992) .

يلى ذلك أطروحته عن "الغريزة الجنسية : من التكاثر إلى التواصل"، وقد ألفت في منتدى أبو شادي الروبي، وهو بعض نشاط لجنة الثقافة العلمية، إحدى لجان المجلس الأعلى للثقافة، وستراد هنا مع الملحق بهدف الإيضاح والتكامل، وقد نشر بعضه وتم تحديثه في نشرة 2008-3-26 ، بعنوان لغة الجنس والجنس كلفة .

ثم كان الفرض الأصعب وهو المتعلق بتقديم تصور لبرمجة حيوية جديدة (غريزة) أسميتها "الغريزة الإيقاعية التوازنية" تأسلا للأسس البيولوجية للإنسان والتدين. هذا البحث الأخير في هذه الغريزة هو أكثر المباحث تحديا وحرجا في نفس الوقت، لكن أداء الأمانة، وارتباطه المباشر بالممارسة الطب نفسية في ثقافتنا خاصة جعله محورا جوهريا في عموم المسألة، وهو بالتأكيد ليس بحثا في اللاهوت أو علم الكلام أو أصول الأديان.

في آخر لحظة : أخقت بالكتاب ملحقا يشمل بعض ما كتبتة عن الفطرة كأغان للأطفال، أعدت نشرها مع توجيه للكبار (بمناسبة شهر رمضان 1426) في صحيفة يومية (روزاليوسف اليومية) وقد وجدت أن هذا الملحق، بمادته المتنوعة التي نشرت لقارئ عادي قد يكون الأقرب بشكل ما، حتى أنني أكاد أنصح من شاء من القراء أن يبدأ به، ربما ساعده ذلك على مصالحة كلمة الفطرة كما سأقدمها هنا.

(وربما ألغيت هذا الملحق في لحظة، وهذا هو الأرجح)

(اكتشفت أثناء اقتطاف هذه المقدمة أن ثم برامج - غرائز أخرى، تحتاج عناية خاصة لم ترد في هذه المقدمة: أنظر يومية غدا: الأربعاء) .

يحيى الرخاوي المقطم: 19 رمضان 1426 ، 22 أكتوبر 2005

وبعد

حين يسألني ربي، ماذا كان أحق بوقتك يوم 18 نوفمبر سنة 2008 وأنت جالس أمام البحر، ومجواره وداخله: في عمق أعماقه، تحرك الشيش الساتر بالتحكم عن بعد، بعد أن أتاح لك عطاء التكنولوجيا الأحدث أن تتخلص من الستائر المترججة، والحواجز الخشبية التي كانت تحول بينك وبينك، بينك وبين البحر، بينك وبينك؟

بماذا سوف أرد عليه سبحانه؟

رعبت،

وتوقفت،

وامتلأت غيظا وشكرا للصديق حافظ عزيز الذي نبهني إلى هذا القول الصوفي:

"أن أملاً الوقت بما هو أحق به"،

الله يسامحك يا حافظ

كما تذكرت توصية الإبن جمال التركي المرة تلو المرة،

واستغفرت،

وكتبت هذا الكلام اليوم بدلا عن ما كنت بصدده

لن أراجع

ولن أتوقف

لكن...

الحمد لله.